الأقلام

مجلة فكرية عامة تصدرها وزارة الاعلام - بغداد

ظلمتك يا بغداد

عبد الكريم غلاب

ما يزال اسم بغداد يثير المشاعر العربية ، ويحمل الى الاحساس العربي مجموعة من القيم والحضارات والثقافات والفنون والسياسة . وما يزال الذين يزورون بغداد ـ على اختلاف العصر واختلاف التفكير واختلاف التقييم ـ يشعرون وكأنهم يزورون عاصمة الرشيد وبلد الف ليلة وليلة ومغنى ابى نواس ومزارة البحترى وابى العلاء ومصدح دنانير ومجمع المأمون

واذا كانت الف من السنين أو تزيد تفصل بغداد عن عالمها ذاك ، وترمي بها بعيدا في أحضان حضارة جديدة وقيم جديدة وانسان جديد ومظهر بنائي جديد ، فان الاصالة التي تتمتع بها بغداد لم تستطع ان تفصلها عن عالمها القديم الذي امتزج فيه العلم بالفن ، والادب بالسلطان ، والمال بالترف والنعيم ، فأصالة بغداد اصالة عربية . والعروبة محتد أصل لايمكن ان ينسلخ عن ماضيه ، ان غيرت السنون من مظهره فلن تغير من مخبره .

كنت قد زرت بغداد منذ نحو من ثلاث سنوات وجوها يومئذ ملتهب تزفر شوارعها بلفحات من جهنم وتتبخر دجلتها فيكسوها لون أغبش يغلف بغداد بقتامة نافرة . ونظرت في وجوه البغداديين فوجدتها طافحة بالالم الصامت من حكم يسومهم سوء الذلة والحقارة ، كان اباؤهم يطفح ألما على وجوههم ، فقد كانوا غير راضين ان يحكمهم عقل أهوج ، وعصب متوتر ، وحس بليد وفكر تافه جاهل ... لم يكونوا يرضون بكل ذاك ، ولكنهم كانوا يشهدون القوة تجمع الشعب للهتاف والتسبيح ، وتفاعة العقل الاهوج المتبلد تفرض عليهم ان يسيروا في تيار الطيش والحمق واللا مسؤولية . كانوا غير راضين ، وكانوا متألمين ، وكانوا يشعرون بانهم غير أهل لمحنة يشقون سعيرها وهم عرب اخص سماتهم الكرامة والاباء . ولكنهم في ألمهم ، كانوا يرون مصير الحكم الارعن الى زوال . كانوا يسرون الي بذلك ولا يجهرون ، وتعبر وجوههم المتألمة أصدق تعبير ، بل افصح مما لو كانوا ينطقون ويجهرون . .

وضاقت نفسي ببغداد ، فقد اقتربت من الرجل الذي ضاقت بغداد بحكمه ، وسمعته خطيبا ومتحدثا ، ورأيته يستقبل الناس ويستعـــرض الجيش ، ويحضر في الحفلات ، فعجبت لقوم يحكمهم رجل من عصب تالف أربع سنوات ، واصبحت بغداديا كما لو كنت ابنا من ابنائها ، وضاقت نفسي بالمدينة اللاهبة شكلا ومضمونا وفررت من بغداد وأنا أحمل لها في نفسي ذكرى لم تكن احسن مما يحملها أحد ابنائها ·

وظلمتك يا بغداد ··!

فلست انت دائما بغداد يوليو ، ولست دائما بغداد عبدالكريم قاسم، ولكنك بغداد التي تغنى بجمالك الشعراء ، والتي تطفح قسماتك بالاصالة العربية ، والتي يتمثل فيك سحر دجلة وخفة ابى نواس ، ورزانة البحترى، وعمق الفكر الانساني الذى التقى بين جوانحك ، وطهر النفس العربية التي مايزال يمثلها بنوك ، ورحابة الصدر التي ماتزال تحتوى الغريب عنـــك وبسمة الرضى التى تطفح على وجوه علمائك وشعرائك والمكافحين مـــن ابنائك ·

عدت الى بغداد بعد قرابة من ثلاث سنوات ، فوجدتها غير بغدادالتي عرفتها من قبل : لم اجد ارضا لاهبة ولا وجوها عابسة ، ولا الما عميقـــا ولا تيرما من الحياة ، وانما وجدت البغدادي كما يحدث عنه التاريخ عربيا مستبشرا بالحياة ، سعيدا بعروبته وعمله ، يعيش في عيد مظهره الفـكر والادب والشعر ·

ووجدت بغداد الرضية تقبل عليك لتحتويك بين قبابها ومنائرهـا ومساجدها · بين شوارعها الفخمة الحية ، وجسورها الضخمة الجميلة ، بين معاهدها وكلياتها ومكتباتها · وجهها المفتر ينبىء انها رضية متطلعـة تفتح امامها آفاق الحياة الفضلى ·

وتشعر وانت في بغداد انها تنفض عنها غبار الماضى المؤلم فهي ترغب في حياة الحرية والديمقراطية ، وهي تطمح لحياة وحدة عربية شاملة ،وهي تتمطى لتكسر قيودا سياسية واقتصادية واجتماعية غللت حريتها احقابـا من التاريخ ·

وهي تحاول ان تمحو مظاهر تشويه ماتزال تخيم في جنبات شوارعها الضخمة الواسعة ، وهي تحاول ان تصل ما انقطع او كاد بينهـا وبين بقية البلاد العربية فتنظم مؤتمرا للادباء ومهرجانا للشعراء ، وفي حظيرتهـــا يجتمع الفكر الذي ينبض مابين المحيط والخليج · ومن علمائها واساتذتها وشعرائها وشاعراتها تتكون باقة حافلة بالنور والاريج تستقبل وفـــود الفكر العربي لتحقق معنى اللقاء الفكري الذي اشاع يقظة بين رجال الفكر والقلم واحيى عهد بغداد الزاهر فوصل ما انقطع من التاريخ على نحو لم يعرفه التاريخ ·

هذا اللقاء الفكرى منح بغداد مظهرا جديدا لحياتها الفكرية القديمـة

فقد كان حاكموها من الخلفاء يعتبرون الفكر احد دعائم الحكم ، وحرص حاكميها الحاليين على اقامة هذا اللقاء الفكري في بغداد دليل على انهم مايزالون يقيمون للفكر وزنا في حياة الشعوب ·

وأحسب ان الشعب العربي في العراق هو الذي يفرض للفكر وجودا في المجتمع الحديث ، فان تيار السياسة والتيار الاقتصادي والتخلف الاجتماعي لم يستطع كل ذلك ان يصد الانسان العربي في العراق عن أن يعنى بالفكر ويعطيه مركزه في الحياة العامة ·

ماتزال الحضارة العربية تلتقى في بغداد ولو بعدت بين مظاهرهاآفاق المشرق والمغرب . والفن المعمارى المغربي هاجر اخيرا من قلب فاس ومراكش ليلتقى بالفن المعماري العراقي في الكاظمية والاعظمية وغيرهما من المساجد والقصور ، هاجر النقاشون على الجبس بفنهم الممتاز الذى يمثل اروع الفنون المغربية الاندلسية ليثوى في سقوف وبلاطات المساجد ببغداد، وقد استدعت بغداد ورحبت وبذلت الكثير لتؤكد قابليتها لمزج الحضارات وتطعيمها ، ولتؤكد تقديرها للفن الاسلامي العربي الذى مايزال ينبض بالحياة في المغرب ·

وهذا الالتقاء لم يكن الا نموذجا لالتقاء الحضارات في بغداد الحديثة كما كان الامر منذ كانت بغداد القديمة وقد شعرت وانا ازور هذه المساجد بشعور الاعتزاز ، فنحن هناك نؤكد هذه الصلة التي جمعتنا منذ كان الانسان العربي سواء في بغداد او فاس او مراكش ، ونؤكد وحدة حضارتنا التي تستند على اصول واحدة وان ثوى مظهر لها في المشرق وثوى مظهرها الاخر في المغرب ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعاصمة الشرقية الكبرى ماتزال تفتح آفاقها على الحضارة الحديثة· وكأية عاصمة شرقية تقف بغداد بين الماضى والحاضر والمستقبل : العباءة والعقال والعمة بجانب البذلة والشعر المرشوق · والمرأة المعبأة تجرر اذيالها في ارتخاء الى جانب الفتاة السافرة المتأبطة لكتبها او محفظة عملها وما تزال فتاة بغداد تكافح في سبيل اناقتها يسعفها جمال متفوق في الغالب. فيه بعض من سمر العربيات ولكن فيه كل حورهن واتساع عيونهن وجاذبية نظراتهن ·

وما تزال بغداد تحكي القديم والحديث في مظاهر البناء والعمران فأضيق الدروب والزقاقات يطل على اوسع الشوارع الحافلة بالحركة والحياة · واجمل العمارات تجاور كوخا او شبيه كوخ · ومايزال القديم والجديد يتجاوران حتى في التيارات السياسية والاجتماعية والفكرية ، فالشيوعي المتطرف والبعثي النزق والقومي المتحمس والوطني المحافظ والمسلم المتمسك ، كل اولئك يتجاورون في تعايش سلمى او دموي ،ولكنهم جميعا يعطون صورة عن بغداد التي ماتزال تتقبل وتهضم وتصدر فكرا وثقافة ومبادىء وقيما وحضارة ·

لاتذكر بغداد الا ويتداعى من اسمها الادب والعلم والفن والحضارة، وليس من شك في ان ذلك ناتج عن الدور الذي قامت به بغداد كعاصمة اسلامية عربية اشعت كل حضارة الاسلام والعروبة في ازهى عصور التاريخ العربي من حيث العلم والحضارة والفن والادب ·

ولذلك فبغداد مدعوة دائما ان تقوم بمسؤولياتها التي حملها اياها التاريخ او حملتها لنفسها في احقاب من التاريخ · فتقوم بدور الاشعاع العلمي والفني والحضارى · ولن يعفيها من هذه المسؤولية الكوارث التي هزت كيانها حينما وطئتها اقدام الفاتحين من امثال المغول والتتار الذين خربوا مظاهر الحضارة ، واطفأوا كثيرا من منارات العلم والفن والادب ، وابادوا المكتبات والجامعات والمدارس ، وأخمدوا بكل ذلك الشعلة المتقدة في نفس المواطن العربي في بغداد وفي كل افق شملته بغداد باشعاعها ·

لن يعفيها كل ذلك من رسالتها الفكرية ، ولن يعفيها ايضا ماتعرضت له ـ كجزء من عالم العروبة والاسلام ـ من تخلف بعد ان اصبح هذا العالم كالبقرة الحلوب يدر الخير على الحاكمين ، ويكتفي ـ بحكم انه بقرة ـ باجترار الغثاء ولم يفده الاجترار ولو اقنعه بانه مايزال يتغذى ·

ولن يعفيها من مسؤوليتها الفكرية ما اصابها من احتلال عسكرى وغزو فكرى اضفى على البقرة الحلوب المجترة طابع الاستمرار ، وحول « الذهب الاسود » الى لعنة خربت طاقة العمل عند الفلاح والصانع والتاجر والعالم والعامل لتصرفهم جميعا الى طلب الغنى عن طريق المجهود الميسور، والى التقاط الفتات من مائدة الشركات المحتكرة المستغلة التى تستنزف ثروة الوطن ، ومن وراء ذلك تستنزف الطاقة البشرية المكافحة فى الوطن المتخلف ·

ولن يعفيها من كل ذلك قلة الاستقرار الذى عرفت به ارض العراق ، حتى اصبحت فيما يخيل لبعض الملاحظين ارضا تصنع الثورات ، وتصدر وتستورد ··· الثورات ·

والحق ان العراق ما يزال البلد الذى يشعر بمسؤولياته العلمية والادبية ، ومايزال البلد الذى يعيش للعلم والادب والفن ، وكأنه مصر على ان يلتقط الشعلة القديمة لتضيء فكر هذا الجيل والاجيال القادمة ·

عرفت وانا في القاهرة مجموعة من زملائي في كلية الاداب من العراقيين كانوا مثال العمل الدائب والنشاط المجد ، وكان لهم عشرات الزملاء فى مختلف كليات الجامعة ومعاهدها · ولم تكن حكومة بغداد تبخل في رعاية طلبتها وتوجيههم ، وكانوا يشعرون وهم طلبة برسالتهم العلمية التى تحملها اياهم الاجيال ، وكم كنت سعيدا وانا اجد الان بينهم عمداء الكليات واساتذة الكراسى في الجامعات ، وكلهم استمر في رسالته العلمية ومايزال ·

وكنت اعرف وأنا في القاهرة ان معظم ما تنتجه مصر من كتب العلم والمعرفة يصدر الى العراق ، ولولا القارىء العراقي لتوقف كثير من المنتجين عن النشاط العلمي في القاهرة وماتزال هذه الظاهرة ملحوظة في العراق • العراقي مغرم بالقراءة المجدة ومغرم بالبحث والكتابة ومغرم باقتناء الكتب ، ومغرم قبل هذا وذاك بالجهد المضني من اجل العلم والادب والفن •

واذا كان العراقي لايجد راحته في العمل الفلاحي مثلا لانه لايقبل ان يكون لصق الارض يحطم كبرياءها لتنتج وتدر ، فهو بعكس ذلك يقبل عن طواعية والتذاذ ان يكون لصق الكتب يبحث ويدرس ويبذل الجهد والمال في سبيل اللذة العلمية •

ماتزال البيئات العلمية على اختلاف الاجيال تشع علما ومعرفة في انحاء العراق ، ومايزال الاختصاص ـ قبل ان تعرف الجامعة التي توزع الدارسين حسب اختصاصاتهم ـ يوجه علماء بغداد والمدن التي عرفت بالعلم والبحث في العراق : علماء عرفوا بالبحث التاريخي والجغرافي وعلماء عرفوا بالبحث اللغوي والادبي ، وعلماء عرفوا بالبحث الفقهي والاصولي ، وهكذا يوزع العلماء جهودهم في البحث والاستقصاء والانتاج •

وقد كان مؤتمر الادباء العرب فرصة قدمت فيه العراق نخبة من علمائها الممتازين في كل فروع المعرفة ، كان منهم الباحثون والمحققون والدارسون والمؤلفون والاساتذة برهنوا على ان المجامع العلمية ماتزال تجد في العراق البيئة العلمية الصالحة للدراسات العلمية •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبرزت في المؤتمر نخبة من علماء التراث العربي والاسلامي وهم جميعا من المحافظين على هذا التراث بما كونوه من مكتبات نادرة الوجود في العالم العربي الاسلامي • زرت احدى هذه المكتبات النادرة التي كونها الاستاذ عباس العزاوي عضو المجمع العلمي العراقي ، فقد تكرم باستدعاء نخبة من اعضاء المؤتمر لزيارة المكتبة الحافلة بنوادر المخطوطات التي يشغل نفسه ـ رغم شيخوخته ـ بتحقيقها والاستفادة منها ، وهو يعتز بهذه المكتبة ويغار عليها كشيء ثمين تطلب منه عمرا مديدا في تكوينه وتربيته وقد كان لذيذا ان تشهد احدى لجان المؤتمر نقاشا حادا عنيفا بين الاستاذ العزاوي والاستاذ علي الخاقاني قوامه رغبة كل منهما ان يطلع على اغرب مافي مكتبه الاخر •

وما تزال العراق تحتفظ بروعة الشعر العربي وقوة اسلوبه ونقاء لغته وحسن جرسه ويروعك ان تستمع الى شيخ معمم ملتح ينقي شعرا يهز به اعواد المنابر كما كان يقال ، استمعت الى الشيخ مصطفى جمال الدين واستمعت الى الشيخ احمد الوائلي وغيرهما فذكروني بالشعر العربي الاصيل الذي كان الشاعر يوفر له كل جهده وطاقاته الفنية وكل احساسه ووجدانه ومعارفه ليقدم قطعة من ذات نفسه ، فيها روعة الاحساس وصدق

الوجدان وجمال الصنعة والتمكن من اللغة والاسلوب . انك تكاد تؤمن بانك امام طاقة فنية رائعة تذكرك بالبحتري وابي تمام والشريف الرضي، وقد تذكرك الوجوه والملابس بالعصور الخوالي ، ولكن الشعر نفسه ينقلك من الماضي الى الحاضرفي مضمونه وطريقة تصويره،وان احتفظ الشكل والاسلوب باجمل مافي الماضي وازوعه وازهره .

العراق بيئة علمية صالحة .

كذلك كانت في الماضي كما يحدث التاريخ ، وكذلك هي في الحاضر كما تحدث حياة العراقيين ، وكذلك هي في المستقبل كما تحدث الكليات والمدارس والمجامع التي توفر العلم لكل ابناء العراق والتي تجعل من مستقبل العراق صورة منتسبة لماضيها على جسر حاضرها .

الرباط (المغرب)